الحيـــاة صادقة !

[إلى ضحية الحرمان والأحزان النابغة «مى» !]

للأستاذ عبد المنعم خلاف

هذه الشعلة التى تسكن جسم الحى ، تتطلب إحساساً كاملاً بها وذوقاً مستوعباً لما يتملاها مليّا ، وينهل من حرارتها عبًّا وريًّا ...

هذه الشعلة تنادى الجسد أن يحييها ليحيا بها ، ويُعدها بوقود ليستدفئ ويستضئ ...

إنها كمنى النار : حرارة فى جسم حار ... عَرَض على جوهر لا انفكاك بينهما ، ولا استقلال لوجود أحدهما عن الآخر ...

إنها لا تنتقم لمن يحاول كبتها وإخمادها ، وإنما تحترق فيه فتُصليه وتُرديه ...

شعلة الحياة هى أكبر هبات واهب الحياة ؛ لأنها نفحة من وجوده الخالد ! فكيف يأبى العود الأخضر أن يدب فيه النماء ، ويتسرب فيه الماء ، وتنبثق منه البراعم ذات الأفراخ الزُّغب ، والأوراق الخضر ، والزهرات النضر ، والثمرات الصحاح المملوءة بأسرار الحياة ؟ !

لا جرم أن يصير هذا العود المتأبى على عوامل الحياة والنماء حطباً يحترق بعوامله الذاتية ويموت فى موضع الحياة ، حتى تأتى يد الحطّاب فتأخذه لتقذفه فى النار ، وتنقى منه صفحة الحقل الخصيب ...

* * *

إن الحياة صادقة ، وذوو الفلسفات الذين ينادون بالحرمان من ينابيعها كاذبون !

إنها لا تحابى أطفالها الذين يأبون رضاع أفاويقها ، ولا تمكث بجوارهم لتعللهم طويلاً إلا ريثما يدركون وجهاتها ويصيرون صالحين لحمل شعلتها ذات الأمانات والأسرار ثم تجازيهم على العقوق والمخالفات ...

فلتحذر القلوب الشابة الشاعرة التى قد يخدعها ما فى الفن من تزاويق وضباب ملون ، أن تستسلم لخطَفَات الشعراء المتشائمين ، وأخذات الرهبان المتعامين ، وشطحات المتصوفة المتقطعين ... أولئك الذين يسيرون أحراراً من قيود الأرض ، لا يعيشون فى عش ... وإذا عاش الإنسان فى عش خضع لقوانين الأرض ، وارتبط بها كارتباط الحيوان والنبات بحبل القرية ... فلم يفكر فى الشرود

وأنى له الشرود ودواعى الحياة الأرضية تناديه فى قلبه بالعواطف الأبوية والزوجية ، وفى جسمه بالمحافظة لمقاومة عوامل هدم العش ، وفى فكره بالتدبير للاقتناء والتوريث ... !

أما إذا ظل منفرداً حتى جاء أوان الإدراك الكلى ، وحان بلوغ الأشد ، فسيموت فى نفسه الخوف من الحياة والحب لها ، وحب الارتباط بالواقع ... وسيُكْفَى التدبيرَ والعمل للاقتناء والتوريث ، وسيستمر حتى يخلص فكراً طليقاً بعيداً عن قيود الأجسام وضرورات الأرض ، ويكون قلبه وكراً لما كنات غريبات من الأفكار والأوهام ، كما يكون الركن الخرب مسكناً لطيور وحشرات لا تحبها الحياة ، ولا تحب هى نور الحياة ... !

* * *

لن يجدى الإنسان شيئاً أنه يقف حياته على ملء يديه بالأضواء والرياح والمياه ، وما لا تقبض عليه ولا محصول يدوم منه إلا صوراً بيانية فى ورقات جافة ...

إن الحياة هى كلمة الله النافذة إلى القلوب ، لا يحسها إلا من يحملها بأعبائها ، ثم يحاول أن يسلمها لغيره ... وقد أودعها الله قلب آدم ، « فجعلها كلمة باقية فى عقبه إلى يوم يرجعون ... »

إنها كلمة السر ! من لا يعرفها لا يستطيع أن يسير فى المسالك والدروب التى طرقتها أرجل القافلة منذ فجر الحياة إلى يوم الناس هذا ...

* * *

كثير من المتطلعين المتوسعين لما يولد فى الكون من عجائب يحبون أن يروا مخدوعاً شاذاً يأتى إليهم بطبائع غريبة وألوان مستحدثة من الحياة والتفكير . ومن هنا كان إعجابهم بأمثال « أبى العلاء » و « نيتشه » و « شوبنهاور » وغيرهم من المتشائمين المتشككين الذين أبوا أن يمدوا أيديهم إلا إلى الحنظل والأشواك ويتركوا ما فى الحياة من تفاح وأزهار . ومنشأ إعجابهم بأمثال هؤلاء أنهم يحبون أن يروا الشذوذ ليدركوا منه القاعدة العامة التى تنتظم حياتهم .

أنهم يحبون أن يروا الضحايا المصلوبين ليتخذوا منهم مادة لأقوالهم وخيالهم وتأملاتهم .

وكثيراً ما يخدع الشباب المفتون بهذه الحياة الشاعرة الحادة الشائعة المنطلقة من قيود الأرض التي لفتت أنظار النقاد والمتكلمين ودعتهم إلى التحليل وإضفاء النعوت والألقاب وضفر أكاليل الغار ونثر الأزهار . فيحب أولئك الشبان الشعراء أن يحوزوا مثل تلك الشهرة ولو أصابتهم أوجاع المصلوبين والمحرومين ...

ولكن ما جدوى الشهرة وأكاليل الغار على من أقفر قلبه من بشاشات الحياة ؟ وعلى من رأى الحياة عبئاً ثقيلاً يود الفرار منه ولو إلى جهنم ؟

إن السعادة لن يكون منشؤها غير الفيض الذاتي من القلب الذي يتصل بأعماق الحياة ذات المسرات الأصيلة . ولن تأتي بها شهرة أو مال أو ألقاب يخلعها عشاق الأعاجيب .

فليحذر الشباب أن يصدقوهم ويكذبوا الحياة ...

* * *

كلا . لم نخرج إلى الوجود لنفطم أنفسنا عن أطايبه إلا ما فيه تأثيم ومساس بحقوق الجماعة التي تنمو بينها عوامل الحياة فلنأخذ طوعاً من الوجود كل طيب مَرِيء كما نحمل كرهاً على تناول الخبيث الوبيّ من آلامها ... وليس من العدالة أن نقبل الألم ونأبى السلامة ، إلا إذا أردنا أن تكون حياتنا سلسلة من النقمة والسخط والوجيعة واجترار الأحزان ورؤية الحياة من وجهها المظلم وحده ...

ولندفع أنفسنا إلى غايات الحياة الكبرى في شيء من الخديعة والتلبيس كما ندفع الأطفال إلى غايات مستقبلهم ...

وإن الاعتراف بازدواج المساءات والمسرات في الطبيعة هو أول أسس النجاح واجتياز محنة الاختبار في هذه الدار . ونكون سعداء حينما نخرج من هذه الحياة متوازنة فينا نواحي الآلام والمسرات . ونكون أسعد حينما نخرج متفائلين طيبة نفوسنا راضين عن الحياة وواهب الحياة ...

وإن الأقدار ترمينا بيد السوء لتمسح عنا بيد النعمى . فإذا وقعت علينا إحدى اليدين فمن الفطنة ألا ننسى أن الأخرى وراءها . فواجب أن نفر من الحزن ولا نحسبه ضربة لازب ، وألا يطيش بنا الفرح فنحسبه ضربة لازب ...

عينان لعينين ، وشفتان لشفتين ، ويدان ليدين : تريان وتذوقان وتذودان !

تلك شركة إنسانية أرادها الله وطبع عليها الحياة . فمن رأى بعينيه وحده لا يرى نفسه ... ومن ذاق وحده قتل حِسَّه ... ومن ذاد وحده لم يحْمِ جنسه ...

شركة أرادها الله ليخرج من بينها أيدياً وشفاهاً وعيوناً تنظر وتذوق وتعطى شعلة الحياة حطباً ، ونواميسها عملاً ، وطواحينها طِحْناً ...

* * *

هذا الجنس الطيني لن يكون مَلَكياً خالصاً وهو فى الأرض والمطلوب منه ألا ينسلخ ويتجرد من قوانين التراب . ومن قوانين التراب المزاوجةُ والتجمعُ والمؤالفةُ بين المتشابهات . فَبَدوات الآمال المحرَّرة ، وأحلام الانطلاق الكلّي لم تخلق لهذا العالم الأرضي ، وإنما هي نماذج مما سيكون هناك ... تراها أرواحنا لتتعلق بها وتعمل على بلوغها بعد الرحلة ...

والناس يحيون هنا بالجسد أكثر مما يحيون بالروح ، فهم إن عجبوا من المتحررين من الأجسام فما ذاك لأنهم يريدون اقتفاء آثارهم ، وإنما يقفون أمامهم لحظة أو لحظات ثم يتفلتون إلى غمرات الحياة ذات السحر والسلطان الآسر القاهر !

فلا تأخذنَّكم خواطف العزلة يا شباب الشعراء ، ولا تتخطفنَّكم الأشباح والأوهام من رحاب الجماعة وأحضان الطبيعة ذات المنطق العملي ؛ فإن لذلك عقاباً صارماً وثمناً غالياً يدفع من الأعصاب والدماء وقوى الجسد والروح . ولا مقابل لذلك إلا قبض على ريح ، ومضغ لماء ، واغتراف من سراب !

* * *

ما نحن المتكلمين تجاه وجه الحياة الواضح المعروف إلا نكرات مبهمة لا يعرفها أحد . أما هي فوجهها معروف السمات صادق القسمات . فإذا طالعنا الناس بوجوه مخالفة لها كذبونا وصدقوها ...

وما منطقنا تجاه منطق الأبد العميق الذي يجر الأحياء إليه بقيود وحبال من سحره الخفي ، إلا منطق تافه ذو صوت خافت تذهب به ضجة الحياة ذات المراكب الثقيلة والمواكب المتلاطمة ...

فليكن وجه أدبنا صورة من وجه الحياة الصادق . . . وليكن منطقنا منتزعاً من منطقها الصارم ... ليكونا أدباً ومنطقاً

يخدمان أهداف الحياة ويخففان أعباءها ...

وليكن مَعْرِضُنا للآلام والأحزان عرض الذكر بدولتها على النفوس حتى لا تطيش بها الأفراح والمباهج ، لا عرض الذي جعلها بخُور فَنِّه . وليكن أدب الحرمان بمقدار الحرمان الذي في الحياة ، لا نزيد عليه ولا نضخمه ولا نجترُّه ...

والحياة وَهُوبٌ معطاء أكثر مما هي بخيلة ضنينة . فليكن تصويرنا لها بالفن كما هي ، بل إن استطعنا أن نزيد بالفن ألوان مسراتها وأنواع عطاياها فلنفعل ...

إن الحياة هِبَةٌ عظمى ثمينة من واهبها ! فلنعرف لها مقدارها ...

ولْنَهتزّ مع أعوادها الخضر للرياح والنسمات والأنداء والأضواء اهتزاز النماء والإنتاج والإثمار وإعطاء الأسرار للأبناء بعد أخذها من الآباء ...

* * *

ما ضر « مَيًّا » لو عاشت « أنثى » للبيت والأمومة والفن المخفف بدل تلك الرهبانية التي اختطفتها من رحاب الحياة وانتهت إلى اختطافها من صومعة الفن كذلك ؛ فحرمت المروءة وحرمت الأدب من أعذب صوت نسوى يشدو ببيان عربي ؟

إن الفن تفر إليه النفس لتخفيف أعباء الواقع ؛ فينبغي ألا يتخذ غذاء دائماً للنفس وإلا فقد سحره وأورث النفس سآمة لا دواء منها . ومن أين الدواء وقد صار « أفضل ما في النفس بمثالها » . وصارت الغُصَّة مما كان يزيل الغصة ؟ !

وما كان ضرها لو صبرت بموت أبويها كما يصبر سائر الناس بموت الآباء والأمهات : بكاء على الفراق حتى نتعود الفراق ، فيندمل الجرح وننسى إلا في ساعات الذكرى التي لا بد فيها من استحضار صور الأحباب والأعزاء الذاهبين ، فتدمع عيوننا دمعاً لذيذاً رقيقاً يغسل غشاوات القلب بماء غير حميم الماع . . .

إن احتجاز الأحزان الثقيلة واجترارها أعظم ما يبتلى به القلب وتحطم به الأعصاب ويمحو بشاشات الأيام ويحبس النفس في جدرانها تحت ظلال من الخواطر القاتمة ...

مسكينة « مى » ! استغنت عن صداقاتها ومجالس أسمارها وأحاديثها في أشد أوقات حاجتها إلى السلوى بها !

لقد نجاها الموت من عذاب مثلث الأوجاع : التفرد والثكل ، والمرض ...

وما كان لأنثى أن تحمل مثل ما حملت وتنهض به ...

عبد المنعم خلاف

الرسالة في سنتها العاشرة

على الرغم من استحكام أزمة الورق ومواد الطباعة وارتفاع أثمانها إلى عشرة أضعاف ، ستستمر الرسالة على نظام العام السابق من التخفيض والتقسيط والاهداء ، مع المشتركين القدماء . أما المشتركون الجدد فيؤدون الاشتراك كاملا مقسطا أو غير مقسط . ومن المقرر أن المشتركين القدماء لن يتمتعوا بمزايا الاشتراك المخفض إلا إذا بدأوا اشتراكهم من ديسمبر إلى آخر يناير ١٩٤٢

ولن يمد الأجل بعد ذلك